[٣]

حديث شطط في الطريق الى سجن شطـــة

لم يشأ الرجل الكبير الا ان يصحبني الى بيت خالتي فيسلمني الى مدير السجـــن تسليم اليد باليد . فنحن ، الذين ورثتنا الدولة عن آبائنا ، تظل مراتبنا عالية ولو في قاووش السجن . كقولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد الى جزيرة سيشل .

او هكذا أوهمت نفسي حتى اركبوني في سيارة البوليس المقفلة ، الرجل الكبير مـــع السائق الكبير وانا محشور مع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب . فلما اقفلوا الباب قلت : صونا لسمعتي . فلما تأففوا من شدة الحر . وكنا في آب الهباب ، تأففت معهم . فانهالوا علي لكما ورفسا وانا أصيح : النجدة النجدة أيها الرجل الكبير . ولفظتها بلغة عبرية فصحى لاقنعهم بعلو كعبي وحتى أقوم من تحت اكعابهم ، فتوقفت السيارة .

فاذا نحن على مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال . وقد عرجنا على طريق المرج ، مرج ابن عامر . وكان الرجل الكبير يؤشر لهم ، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب ، فانزلوني وحشروني الى جانبه ، بينه وبين السائق ، فاسترحت وتنهدت واستنشقت الهواء النقي وقلت : مرج ابن عامر .

فزجرني وقال : بل سهل يزراعيل .

قلت مراضيا : « وما يهم الاسم » كما قال شكسبير ؟ وقلتها بالانجليزية .

فقال مهمهما : وتروي عن شكسبير ايضا ؟

فاسترخيت مبتسما .

فزجرني وهمهم بصوت مسموع ان هم ، هم . ولو كنت اعلم بما وراء هذه الهمهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب .

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية ، واكتاف تلال الناصرة الى يسارنا ، أخذ الرجل الكبير يلقنني مبادىء حياتي الجديدة في السجن ، واصول التأدب مع السجانين من فوقي ومع السجناء من تحتي . وذلك بعد أن وعدني بترقيتي همزة وصل .

وكنت ، كلما أمعن في هذا التلقين ، ازداد يقينا انه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتى صحت من شدة الاستحسان : ما شاء الله !

وكان يقول : اذا ناداك السجان فليكن اول جوابك ـــ نعم يا سيدي ! فاذا انتهرك السجان فعليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي ! واذا سمعت من زملائك المسجونين كلاما فيه أي مساس بأمن السجن ، ولو تأويلا ، فعليك ان تشي بهم الى المدير . فاذا ضربك مدير السجن فقل له . .

فقاطعته هاتفا : حقك يا سيدي !

قال : كيف علمت ؟ وهل كنت مسجونا قبل ان نسجنك ؟

قلت : حاشا ، يا سيدي ، ان يسبقكم أحـــد الى هـــذا الفضل . انما وجدت ان سجونكم ، عطفا على ما شرحته من أصول التأدب في سجونكم ، هي من الانسانية والرحمة في معاملة المسجونين **بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنـــا** ، ولا نختلف . فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي ؟